بسم الله الرحمن الرحيم

# ٦٨ – سورة نٓ

وتسمى سورة القلم . وهى مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( نٓ ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ )

[٢] ( مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ )

[٣] ( وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ )

[٤] ( وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ )

« نٓ » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف، قصد به التحدى. أو اسم للسورة، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبراً لمحذوف « وَٱلْقَلَمِ » أى الذى يخطّ به «وَمَا يَسْطُرُونَ» أى يكتبون . و( مَا ) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية[1]: ( وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ) .

قال الزجاج : ( أَنتَ ) هو اسم ( ما ) ، و ( بمجنون ) الخبر . وقوله ( بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه. فالباء فى ( بِنِعْمَةِ ) متعلقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ ( ما ) والباء فى ( بِمَجْنُونٍ ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦ ] .

قال ابن جرير[1] : من قولهم ( حبل منين ) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة فى العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير[1] : أى أدب عظيم. وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .

قالت عائشة[2] : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .

قال الرازىّ: وهذا كالتفسير لقوله ( بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ) والدلالةالقاطعة على براءته ممارمى به، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه. وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ )

[٦] ( بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ )

[٧] ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ )

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .

« بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهابا ، إلى أن المصدر يجىء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى). أى: من كوشف بأسرار العلوم، وأوتى جوامع الكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ ( طبعتنا ) ، وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ، « وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيجزى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ )

[٩] ( وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ )

[١٠] ( وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ )

[١١] ( هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ )

[١٢] ( مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ )

[١٣] ( عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ )

[١٤] ( أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ )

[١٥] ( إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ )

[١٦] ( سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ )

« فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشرىّ : تهييج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلهتهم ، وتترك ما أنت عليه من الحق ، فيمالئونك ـ رواه ابن جرير[1] عن مجاهد ـ ثم قال : أى : لو تلين لهم فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه[2] . (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ١٧ / الإسراء / ٧٤، ٧٥ ] .

وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين فى القول بتليين الدهن .

« وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشرىّ : وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى[1] ( وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ) . « مَّهِينٍ » أى : حقير الرأى والتمييز .

« هَمَّازٍ » أى : عيّاب طعان : قال ابن جرير[2] : والهمز أصله الغمز . فقيل للمغتاب : هماز ، لأنه يطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ » أى نقّال لحديث الناس بعضهم فى بعض ، للإفساد بينهم .

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صادّ عن الإسلام .

« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز فى ظلمهم . « أَثِيمٍ » كثير الآثام .

« عُتُلٍّ » أى جاف غليظ . دعىّ « بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ » أى : دعىّ ملصق فى النسب ، ليس منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير[3] : ومعنى ( بعد ) فى هذا الموضع معنى ( مع ) .

وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على أن ما بعده أعظم فى القباحة . فـ ( بعد ) هنا كـ ( ثم ) الدلة على التفاوت الرتبىّ ، ، كما مر فى قوله[4] ( بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ) .

« أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشرىّ : متعلق بقوله ( وَلَا تُطِعْ ) يعنى : ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأَنْ كان ذامال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين ، كذب بآياتنا .

« إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ »

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٢٤ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٤) [ ٦٦ / التحريم / ٤ ] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .

وقوله: « سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ » عِدَةٌ منه تعالى بغاية إذلاله ، بعد تناهى كبره وعجبه وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا يفارقه . قال جرير [1] :

لما وضعتُ على الفرزدقِ ميسَمى ... وعلى البعيثِ، جَدَعْتُ أنفَ الأخطلِ

قال الزمخشرىّ : الوجه أكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ، لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه ( الأَنَفَة ) وقالوا : الأنف فى الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا فى الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره فى وجوهها ، فقال له رسول الله ﷺ : أكرموا الوجوه ، فوسمها فى جواعرها . وفى لفظ ( الخرطوم ) استخفاف به واستهانة ، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل . وقيل : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير [2] : وأصله من ثقيف ، وعداده فى بنى زهرة . أى : لأنه التحق بهم حتى كان منهم فى الجاهلية . ولذا سمى زنيما للصوقه بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة من مولده .

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنِ الديارُ كأنها لم تُحْلَلِ ... بين الكِناس وبين طَلْحِ الأعزلِ

الكناس : ببلاد غنى . والأعزل : لبنى كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر من العضاه . ( شرح ديوان جرير ص ٤٤٢ ) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ )

[١٨] ( وَلَا يَسْتَثْنُونَ )

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببلية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، ( كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ) وهم قوم من أهل الكتاب ـ على ماروى عن ابن عباس ـ أو ناس من الحبشة ـ فى قول عكرمة ـ أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا محبة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى: ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لايعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَثْنُونَ » قال المهايمى: أى: ولا يخرجون شيئاً من حق المساكين ، واقتصر عليه . وحكاه الرازى والقاضى قولاً ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله ـ واقتصر عليه ابن جرير[1] والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسى ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا ) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ )

[٢٠] ( فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ )

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله لتدميرها .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

قال ابن جرير[1] : ولا يكون الطائف فى كلام العرب إلا ليلًا ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أطفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده[2] :

أَطَفْتَ بها نَهَارًا غيرَ لَيْـلٍ وَأَلْهَى رَبَّهَا طَلَبُ الرِّخَالِ

و ( الرخال ) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى مستغرقون فى سباتهم ، غافلون عما يمكر بهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » أى كالبستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شىء . أو كالليل الأسود لاحتراقها . وأنشد فى ذلك ابن جرير لأبى عمرو[3] ابن العلاء :

أَلا بَكَرَتْ وعَاذِلَتِى تَلُومُ تهجّدنى وما انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن ( الورقة ٣٩٣ ) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ . قال : لا يكون الطائف إلا ليلا ، ولا يكون نهارا . وقد تكلّم به العرب فيقولون : أطفت به نهارا ، وليس موضعه بالنهار ، ولكنه بمنزلة قولك : لو ترك القطا ليلا لنام . لأن القطا لا يسرى ليلا .

قال : أنشدنى أبو الجراح العقيلىّ : ( أطفت بها نهارا ... ) البيت اه .

والرخال جمع رخل ( بكسر الراء وفتحها ) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حمل . والجمع أرخل ورخال ( بكسر الراء وضمها ) ورخلان أيضا ( حاشية ابن جرير ) .

(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبى عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو . يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظنى حين هبت عاذلتى تلومنى . قال فى اللسان : هجد ( قال ابن برزج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجدته ) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل . =

وقال أيضاً[1] :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحٍ صَرِيمُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ )

[٢٢] ( أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ )

[٢٣] ( فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ )

[٢٤] ( أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ )

[٢٥] ( وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ )

[٢٦] ( فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ )

[٢٧] ( بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ )

« فَتَنَادَوْا » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفرّاء فى معانى القرآن ( ٣٣٩ ) فأصبحت كالصريم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل المسود اه . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصريم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اه . ويقال : كالشىء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهرىّ : أى احترقت واسودت ( حاشية ابن جرير ) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصريم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصريم بمعنى الليل الشديد السواد ( حاشية ابن جرير ) .

بما جرى عليهم بالليل « أَنِ اغْدُوا » أى اخرجوا غدوة « عَلَىٰ حَرْثِكُمْ » أى زرعكم « إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ » أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها « فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ » أى يكتمون ذهابهم ويتسارّون فيما بينهم « أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ » أى فقير . فالجملة مفسرة . أو ( أن ) مصدرية . أى بأن .

قال الزمخشرىّ : والنهى عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أَرَيَنَّكَ ههنا .

« وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ » أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجِدّ من أمرهم ، أو على منع وغضب « قَـٰدِرِينَ » أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . « فَلَمَّا رَأَوْهَا » أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقاً حرثها « قَالُوا إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى أنكروها وشكّوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظنا منه أنهم قد أخطأوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم، لضالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ )

[٢٩] ( قَالُوا سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ )

[٣٠] ( فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ )

[٣١] ( قَالُوا يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ )

[٣٢] ( عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ )

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ » أى أعدلهم وخيرهم رأياً « أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ » أى :

تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيّرهم . « قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفريطنا وعزمنا السيّئ « عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ )

« كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد فى الأرض . « وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنابوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيداً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى ( الإكليل ) : قال ابن الفرَس : استدل بهذه القصة عبدالوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم. وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشرىّ عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ )

[٣٥] ( أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ )

[٣٦] ( مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ )

[٣٧] ( أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ )

[٣٨] ( إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ )

[٣٩] ( أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ )

[٤٠] ( سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ )

[٤١] ( أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ )

[٤٢] ( يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ )

[٤٣] ( خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ )

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ » أى فى الكرامة والمثوبة الحسنى ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله[1] : ( أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ،

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٤٠ ] .

ويتمنون من الأمانى الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ » أى تقضون من أمانيكم ومزاعمكم .

قال الزمخشرىّ : يقال : لفلان علىّ يمين بكذا ، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به. يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. و(إنّ لكم لما تحكمون) جواب القسم ، لأن معنى ( أم لكم أيمان علينا ) أم أقسمنا لكم . فـ ( بالغة ) ـ كما قال الشهاب ـ معناه المراد منه ، متناهية فى التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه اختصاراً ، وشاع فى هذا المعنى .

« سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ » أى : الحكم « زَعِيمٌ » أى كفيل به ، يدعيه ويصححه . « أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ » أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ » أى : فى دعواهم .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن أحدا لا يسلّم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفى جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ » قال ابن عباس : أى عن أمر شديد مفظع من هول يوم القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شالت الحرب عن ساق ؟ ـ رواه ابن جرير[1] .

« وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الحائل.

« خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ » أى : لا مانع يمنعهم منه . والمراد من السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

تنبيه :

ما أثرناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى ( عَن سَاقٍ ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية، وعليه اقتصر الزمخشرىّ، وعبارته: الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم(١) :

أخو الحرب ، إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَّرَتْ عن ساقِهَا الحربُ شَمَّرَا

وقال ابن الرقيات(٢) :

تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه ، وتُبْدِى عن خِدَامِ العقيلةِ العــذراء

وجاءت منكّرة للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة، منكر خارج عن المألوف كقوله(٣): ( يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنتُ إلى الأَجْبَالِ ، أجبال طيءٍ وحنَّت قَلُوصى أن رأت سَوْطَ أحْمَرَا

ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان : * عن بُرَاها العقيلةُ العذراء *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أقفرت بعد عبد شمسٍ كُدَاء فـكُدَىٌّ فالركن فالبطحاء

كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدىّ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليمانىّ ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة ( الديوان ص ٨٧ ) .

وقال شارح شواهد الكشاف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شىء أكرمه. ورفع الشعواء فى البيت قبله، وخفض العذراء، إقواء . يتساهل الشعراء فيه . (٣) [ ٥٤ / القمر / ٦ ] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استعارة من ساق الشجر ، وفى ( الكشف ) تجوّز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى ( الفِصَل ) : ماصح عن النبيّ ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : ( يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير[1] :

ألا ربَّ سامى الطرفِ من آل مازنٍ إذا شمَّرَتْ عن ساقها الحربُ شمَّرَا

والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصًّا . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به . وقد عاب الله هذا فقال[2] ( بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهانىّ إلى أن الآية وعيد دنيوىّ للمشركين ، لا أخروىّ . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم[3] : ( وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى[4] : ( يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ) ثم إنه يرى الناس يدعون

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لمن رسمُ دارٍ همَّ أن يتغيرا تَرَاوَحُهُ الأرواح والقَطْرُ أَعْصُرَا

أى أن القطر يتراوحه مرة ، والرياح تتراوحه أخرى . والأعصر : الدهور ( شرح ديوان جرير ص ٢٤٠ ) .

(٢) [ ١٠ / يونس / ٣٩ ] .

(٣) [ ٦٨ / القلم / ٤٢ ] .

(٤) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٢ ] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لايستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذى لاينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله[1] ( فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ) انتهى .

قال الرازىّ : واعلم أنه لانزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لايمكن حمله على القيامة، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا، والتكاليف زائلة يوم القيامة، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بعظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفى قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ )

« فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهذَا ٱلْحَدِيثِ » أى كِلْهُ إلىّ فإنى أكفيكه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلىّ ، وتخلّى بينى وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لايعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورّطه فيه .

---

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٨٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ )

« وَأُمْلِى لَهُمْ » أى أمهلهم وأُنْسِئُ فى آجالهم ملاوةً من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوىّ .

قال الزمخشرىّ : الصحة والرزق والمدّ فى العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سبباً فى الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرَج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه ( كيداً ) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه فى صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط فى الهلكة . ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه فى التسبب للهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ )

[٤٧] ( أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ )

« أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ )

[٤٩] ( لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ )

[٥٠] ( فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ )

« فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمهالهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنينّك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغمًّا . والمعنى : لا يوجدْ منك ما وجد منه من الضجر والونَى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشرىّ : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ » أى برحمته . قال القاشانىّ : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعداده ، وعدم رسوخ الهيأة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى لمقام النبوة والرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ )

[٥٢] ( وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ )

« وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ » قال الزمخشرىّ : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يُزلّون قدمك، أو يهلكونك . من قولهم ( نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلنى ) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال(١) :

يتقارضون ، إذا التقوا فى موطن ، نظراً يُزِلّ مواطئ الأقدام

وأنشد ابن عباس ـ وقد مرّ بأقوام حددوا النظر إليه ـ :

نظروا إلىّ بأعين محمرةٍ نظر التيوس إلى شِفَارِ الجازِرِ

وبيّن تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم فى حال قراءة النبىّ ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى: « لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن، معاداة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به فى جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه. « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما فى عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنّن من جاء بمثله ؟ ـ وبالله التوفيق ـ .

---

(١) قال شارح شواهد الكشاف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا فى موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .